ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 28 يونيو 2017

السورةُ وَحدَةٌ نصيّةٌ

تطـورٌ في تفسيـر القـرآن في القـرن العشريـن

مستنصر مير

ترجمة: حازم محي الدين

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017

السورةُ وَحدَةٌ نصيّةٌ

تطورٌ في تفسير القرآن في القرن العشرين[1]

تأليف: **د. مستنصر مير**[2]
ترجمة: **د. حازم محي الدين**[3]

---

[1] هذه الدراسة، في الأصل، ورقة علمية تقدّم بها البروفيسور مستنصر مير في ندوة علمية جرت في إحدى الجامعات الغربية في تسعينيات القرن الماضي، وقد نُشرت، مع بقية أوراق الندوة، في كتاب مستقل يحمل اسم (مقاربات إلى القرآن)، بتحرير الدكتور جيرالد هاوتينغ (G. R. Hawting)، والدكتور عبد القادر شريف. ونظراً لأهمية هذا الكتاب، تُرجمت معظم بحوثه إلى بعض اللغات الإسلامية مثل الفارسية والإندونيسية.

Approaches to the Qur´an, eds: G. R. Hawting., and Abdul Kader, A.Shareef , New York, Routledge, 1993.

[2] الدكتور مستنصر مير (من مواليد باكستان)؛ أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة يونغستاون (Yongstown state University)، في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو متخصّص في الدراسات القرآنية، والدراسات المتعلقة بالفيلسوف والشاعر محمد إقبال. وهو رئيس التحرير المشارك لمجلة يصدرها مركز بحثيّ في جامعته بعنوان: دراسات في الإسلام المعاصر.(the journal Studies in Contemporary Islam)

من منشوراته الحديثة: إقبال: صنّاع الحضارة الإسلامية (2006). وفهم الكتاب المقدس الإسلامي: دراسة لمقاطع مختارة من القرآن (2007).

_ Iqbal: Makers of Islamic Civilization (2006).

_ Understanding the Islamic Scripture: A Study of Selected Passages from the Qur’an (2007).

[3] باحث من فلسطين، ومدرّس في جامعة دمشق. كلّ ما يوضع بين معقوفتين [ ] في المتن والهوامش هو من إضافة المترجم.

أحدثَ تفسيرُ القرآن في القرن العشرين قطيعةً حاسمة مع الأسلوب التراثي للتفسير، الذي يمكن، بعبارة عامة، أن يُقال عنه إنّه قد استمرّ من القرون الإسلامية المبكرة إلى نهاية القرن التاسع عشر[1]. أحد تجليات هذه القطيعة هو النظر إلى السور القرآنية بوصفها وَحدَات نصيّة. سوف أحاول، في هذه الورقة العلمية، أن أثبت أنَّ هذه النظرة قد ترسّخت بدرجةٍ معقولة في التفاسير الحديثة للقرآن.

تنقسم هذه الدراسة إلى أربعة أقسام؛ حيث يقدّم القسم الأول خلفيّةً تاريخية موجزة لهذه النظرة. أما القسم الثاني، فيقدّم بياناً وصفياً للجوانب المتعلقة بهذه النظرة في مؤلفات ستةِ مفسّرين للقرآن في العصر الحديث. ويعرض القسم الثالث تحليلاً لهذا البيان. أمّا القسم الرابع، فهو عبارة عن بضع ملاحظات عامة تشكّل خاتمة هذه الدراسة.

1 يقول محمد أركون: «تجذر الفكر العربي، حتى القرن التاسع عشر، في فضاء عقلي يمكن لنا أن نصفه، مع وجود بعض الإصلاحات، بأنّه فكر قروسطي». الفكر العربي، باريس، ط3، 1985م (الطبعة الأولى 1975م)، ص 3.

La pensee arabe, 3rd ed, Paris 1985, (1st ed. 1975), p.3.

تمهيد:

إنّ الفكرة القائلة إنّ السور تمثّل كلُّ واحدة منها وَحدَة نصية؛ ليست فكرة جديدة في حدِّ ذاتها؛ فقد خصص الزركشي (745-794هـ / 1344-1391م)، في (**برهانه**)[2]، فصلاً كاملاً لهذه الفكرة، وكذلك فعل السيوطي (ت911هـ/1505م)، في (**إتقانه**)[3]؛ حيث قدّم تلخيصاً ومراجعة لكتاب الزركشي[4]. يروي الزركشي اختلاف العلماء حول هذا الموضوع، حيث يذكر أنّ عزَّ الدين بن عبد السلام (577-660هـ/1181-1262م) يرى أنّ القرآن الموحى في ظل ظروف مختلفة جداً، وفي مدة تزيد على العشرين عاماً، لا يمكن أن يتضمّن استمرارية أو تماسكاً (ارتباطاً). قام أحدُ شيوخ الزركشي، الذي ذكر لنا السيوطي أنه ولي الدين المولوي[5]، بتفنيد هذه الحجة، وذلك بالقول: في الوقت الذي قرّرت فيه الظروف التاريخية الترتيبَ الذي نزل فيه الوحي القرآني، إنَّ اعتبارات الحكمة هي التي حدّدت النظام الذي بموجبه تمَّ ترتيب هذا الوحي. «فصل الخطاب أنّه [أي القرآن الكريم] على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً»[6].

يتكلّم الزركشي نفسُه عن ما يدعوه «علم المناسبة» بعبارات محبِّذة إلى حدّ ما، ويحدّد أنماطاً عدّة من وجوه المناسبة التي يمكن أن يجدها الإنسان في القرآن[7]. لكنّه يشير إلى أنّه بسبب طبيعة هذا العلم الصعبة، اهتمّ عددٌ محدود جداً من العلماء به، «وقد قلّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته»[8]. من بين هؤلاء العلماء، الذين أشار إليهم، أبو جعفر بن الزبير أستاذ أبي حيان، الذي ألف كتاباً حول هذا الموضوع[9]، وأبو بكر ابن العربي، الذي اشتكى من نقص اهتمام الناس بعلم المناسبة، وأبو بكر النيسابوري، الذي انتقد علماء بغداد لتجاهلهم هذا العلم، وفخر الدين الرازي، الذي رأى أن ترتيب القرآن مليء بالدلالات الدقيقة (أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط). وقام، بشكل منتظم، بشرح الروابط بين الآيات في تفسيره[10].

---

2 الزركشي، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، 4 أجزاء في مجلدين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ط2، 1391هـ/1972م.

3 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، في جزأين، لاهور، 1974م، (مصوّر عن طبعة القاهرة).

4 عنون الزركشي فصله بـ: معرفة المناسبات بين الآيات. أما السيوطي، فقد عنون فصله بـ: في مناسبات الآيات والسور.

5 السيوطي، الجزء الثاني، ص 108.

6 الزركشي، الجزء الأول، ص 37.

7 المرجع نفسه، الجزء الأول، ص 35، 36، 40-43، 45-51.

8 المرجع نفسه، ص 36.

9 المرجع نفسه، الجزء الأول، 36. اسم الكتاب، كما ذكره السيوطي (108/2): البرهان في مناسبات ترتيب سور القرآن.

10 الزركشي، الجزء الأول، ص 36. ذكر السيوطي (108/2)، بالإضافة إلى الأسماء التي ذكرها الزركشي، اسمَ برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (809- 885هـ/ 1406-1480م)، مؤلف كتاب: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (هذا التفسير منشور الآن في 22 مجلداً في حيدر أباد سنة 1389-1404هـ/1969-1984م). وقال السيوطي إنّه استوفى الحديث عن هذا الموضوع في أحد كتبه. [يشير المؤلف، هنا، إلى كتاب السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور] المترجم.

وعلى الرغم ممّا سبق، فإنّ ما قاله الزركشي جعل الأمر واضحاً إلى حدٍّ ما؛ أي إنّ علم المناسبة لم يعتنِ به إلا عددٌ قليل من العلماء فقط، وإنّ هذا العلم لم يكتسب أبداً مكانة الاتجاه التفسيري السائد والمقبول من الجميع، حيث وجدنا أنّ الكتب التي تتناول أصول التفسير، مثل كتاب (**مقدمة في أصول التفسير**)[11] لابن تيمية، لم تذكر أيّ إشارة له، ووجدنا أنّ محاولة الرازي، من أجل الفوز بمكانة محترمة لهذا العلم في التراث التفسيري، قد باءت بالفشل. وفي هذا السياق، لا بدّ من كلمة حول الرازي.

يمكن أن توصف منهجية الرازي، في إقامة مناسبة بين الآيات القرآنية، بأنّها منهجيةٌ خطية ـ تجزيئية (Linear-atomistic)، وهذا يعني أنّه يربط بين الآية الأولى في سورةٍ بالآية الثانية فيها، التي يقوم بربطها هي الأخرى بالآية الثالثة، وهكذا حتى يصل إلى نهاية السورة. وبقيام الرازي بهذا العمل، يحصر انتباهه، في كلّ مراحل عمله، بآيتين فقط (أو مقطعين اثنين). وفي الحقيقة، إنّ هذه المنهجية، التي تهدف إلى مجرّد إقامة روابط مرتجلة بين الآيات، تتجاهل الغاية لصالح معرفة أشجارها؛ تتجاهل السورة لصالح معرفة آياتها. وهكذا، فقد كان من الصعوبة بمكان أن تُفضي هذه المنهجية إلى تطوير مقاربة عضويّة للسور القرآنية[12]. وعليه، ليس من المستغرب أن نرى العلماء الآخرين، الذين حاولوا السير على هذا الطريق نفسه (سواء أكانوا نظام الدين النيسابوري، وأبا حيان، أم الشربيني[13]) قد وصلوا إلى نتائج لا تختلف عن تلك التي وصل إليها الرازي[14]. ولا نستغرب أننا، بعد كتاب الرازي، وكتب العلماء الآخرين الذين اقتفوا أثره، نجد أنّ التفسير التقليدي للقرآن قد حافظَ على طابعه التجزيئي.

---

11 ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (662-728هـ/1262-1327م)، مقدمة في أصول التفسير، دار القرآن الكريم، بيروت، 1392هـ/1972م.

12 من الصحيح أنّ الرازي يستخدم، في بعض الأحيان، فهمَه في الربط بين الآيات؛ ليدعم، أو يرفض؛ تأويلاً قرآنياً معيناً، وبهذا الاعتبار، يبدو أنّ الرازي يعتبر النظم (الانسجام النصي الكلي) مبدأً هرمينوطيقياً. للوقوف على مثال جيّد في هذا الأمر. انظر: جونز، أنتوني، داود وباثشيبا [زوجة داود وأم سليمان]: دراسة حالة في تفسير رواية القصة القرآنية.

Anthony Johns, «David and Bathsheba: a case study in the exegesis of quranic story-telling», MIDEO, X!X, 1989, pp. 245ff.

ولكن على الرغم من ذلك، يميل الرازي (وكلّ المفسرين الذين اقتفوا أثره)، بشكل عام، إلى تبنّي المقاربة التي أدعوها بالمقاربة المرتجلة (ad hoc approach)، حيث كان نادراً ما يحاول تطوير فكرة النظم إلى مبدأ قادر على أن يكون مطبقاً بطريقة ناجعة وثابتة. انظر: تأويل الرازي للآيات من رقم 16 إلى رقم 19 من سورة القيامة (75)، في كتابي: الانسجام النصي في القرآن: دراسة في مفهوم النظم عند إصلاحي من خلال تفسيره (تدبر القرآن).

Mustansir Mir. Coherence in the Quran: a study of Islahi's concept of Nazm in Tadabbur-I Quran, Indianapolis, Indiana 1986, pp. 114-115

13 نظام الدين بن الحسن القمي النيسابوري (ت 728هـ/1327م)، أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بـــ: أبو حيان (654-745هـ/ 1256_1344)، شمس الدين محمد بن محمد الشربيني (ت 977هـ/1569م).

14 انظر: مير، الانسجام النصيّ في القرآن، ص 17-19. يمكن أن نضيف اسماً مهماً إلى قائمة الأسماء هذه هو البقاعي (انظر الحاشية رقم: 13)، الذي كان محور اهتمامه، في كتابه (نظم الدرر)، إثباتَ أنّ القرآن يمتلك نظما رائعاً. يستحقّ هذا التفسير أن يُدرس بشكل مستقل، وأنا أخطط للقيام بدراسة عنه في المستقبل القريب قد يكون من الكافي هنا أن نقول إنّ تفسير البقاعي لم يحقق نجاحاً أكثر من الرازي، أو أيّ مفسر آخر في جعل النظم مبدأً تأويلياً مقبولاً في تفسير القرآن بشكل عام. [كُتبت عن هذا التفسير المتميز دراسات عدّة في العالم العربي، أذكر منها: النظم القرآني في تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الدكتور عقيد خالد العزاوي، دار العصماء، دمشق، ط1، 2012م] المترجم.

تفسير القرآن في القرن العشرين: مسح وصفي:

ينظر عددٌ من مفسري القرآن، في القرن العشرين، إلى السور على أنّها وحدات نصيّة، وهذا يثبت صحة الترتيب المعتمد للآيات داخل السور[15]. ولعلّ أهمّ العلماء، الذين أخذوا بهذه النظرة، هم: أشرف علي ثنوي، وحميد الدين الفراهي، وأمين أحسن إصلاحي من الهند وباكستان، وعزة دروزة [من فلسطين]، وسيّد قطب من مصر، ومحمد حسين الطباطبائي من إيران[16]. كلّ هؤلاء الكتّاب، ما عدا الفراهي، كتبوا تفاسير كاملة. إنَّ تفسيري ثنوي وإصلاحي مكتوبان باللغة الأوردية. أمّا التفاسير الثلاثة الأخرى، فهي مكتوبة بالعربية. كان الفراهي يخطط لكتابة تفسير كامل، لكن الموت منعه من تحقيق ما يريد. ولكنّ أثر عمله الريادي، على الرغم من ذلك، يظهر بوضوح في عمل تلميذه إصلاحي، الذي كتب تفسيره، كما صرّح بذلك، من أجل أن يتمّ المشروع الذي بدأه أستاذه.

أشرف علي ثنوي[17]:

يقول ثنوي، في مقدمة تفسيره (**بيان القرآن**) إنّه قد التزم، أثناء كتابة تفسيره، بأن يشرح كيف أنَّ كلَّ آيةٍ، في كلِّ سورة، مرتبطةٌ بالآيات التي تسبقها والآيات التي تتبعها. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، يستخدم ثنوي، بشكل منتظم، كلمة «ربط» مطبوعة بحرف غامق، ويضعها كعنوان ليطلق تحته النقاش حول هذه الروابط. لنأخذ مثالاً عن معالجته لهذا الموضوع، فها هو يشرح وَحدة سورة لقمان على الشكل الآتي: تتكلم السورة عن القرآن، وتعرض واحداً من تعاليمه الرئيسة؛ أي وحدانية الله (التوحيد). تنقسم السورة إلى أربعة أقسام: القسم الأول 1-9، والقسم الثاني: 12-19، والقسم الثالث: 20-32، والقسم الرابع: 33-34[18]. يبدأ القسم الأول بالثناء على القرآن، وهذا يؤدّي، بدوره، إلى الثناء على الذين يؤمنون بالقرآن، ويؤدي إلى انتقاد أولئك الذين لا يؤمنون به، وفيه إشارة صريحة لعقوبة غير المؤمنين، وثواب المؤمنين. يبدأ القسم الثاني

15 حاول معظم هؤلاء العلماء، أيضاً، أن يقدّموا أدلة تثبت مشروعيّة ترتيب سور القرآن كما تمّ تلقيه من زمن عثمان بن عفان، لكنّ هذا الموضوع، على الرغم من أهميّته، وارتباطه بالموضوع الذي نعالجه، لا يدخل في نطاق هذه الورقة العلمية.

16 يمكن أن نشير، أيضاً، إلى الأسماء الآتية: سعيد حوى، مؤلف تفسير (الأساس في التفسير) (أحد عشر جزءاً، القاهرة، 1405هـ/1985م)، وسيد باقر محمد حُجتي، وعبد الكريم بي آزار شيرازي، وهما مؤلفا (تفسير الكاشف)، وهو تفسير للقرآن باللغة الفارسية (صدر منه في طهران ثلاثة أجزاء، 1405هـ/1984م، وما زال مستمراً في الصدور). نجد عنواناً فرعياً في الجزء الأول يتحدّث عن «عناية هذا التفسير بالروابط الموجودة بين السور والآيات». ويستخدم هذا التفسير بعض «المؤثرات الخاصة»، مثل توضيح بعض الآيات باستخدام الصور والرسوم (قابيل يهدد بقتل هابيل، موسى يحمل ألواح التوراة في سيناء، المسيح يخاطب الناس في المهد، المسلمون يواجهون قريش في معركة أُحُد، رجال في الفضاء).

17 أشرف علي ثنوي (1280-1362/ 1863-1943م): أحد أبرز الشخصيات الدينية الشهيرة في شبه القارة الهندية/الباكستانية. يُلقب، على سبيل التكريم من قِبل الكثير من المعجبين به، بأنه «حكيم الأمة». ويُقال إنّه ألف أكثر من 800 كتاب تغطّي كامل الأدبيات الدينية. يُعدّ تفسيره للقرآن، الذي يحمل عنوان (بيان القرآن) (12 جزءاً، طبعة محققة، كراتشي، ولاهور، 1353هـ/1932م، نُشر لأول مرة عام 1326هـ/1908م)، أحد أهمّ كتبه. خاطبَ هذا التفسير، بشكل متساوق، فئتين من القراء؛ فئة العلماء وفئة عامة الناس. يتألف النص الأساسي من شرح توضيحي، ومن مناقشات لقضايا مهمّة، وهو موجّه إلى القارئ العام، وهذا النصّ مكتوب باللغة الأوردية. أمّا الهوامش، فهي تتعامل مع عدد متنوّع من القضايا العلمية المتخصصة، وهي موجّهة إلى العلماء، ومكتوبة باللغة العربية.

18 [حسب الكلام، الذي نقله الباحث، فيما بعد، عن مضمون هذه الأقسام الأربعة، وبالعودة إلى سورة لقمان، يغلب على ظنّي أنّه يوجد خطأ طباعي، وأنّ الأصوب أن تكون الأقسام الأربعة على النحو الآتي، حتى تتطابق مع كلام أشرف ثنوي نفسه: القسم الأول: 1-9، القسم الثاني: 10-11، القسم الثالث: 12-19، القسم الرابع: 20-34] المترجم.

بتناول موضوع التوحيد، ويتابع القسم الثالث الحديث عن التوحيد، من خلال رواية قصة لقمان، الذي يبدأ بتعليم ابنه، أولاً، أن يكون راسخاً في مسألة التوحيد، ومن ثّم يعطيه بعض التوجيهات العملية، التي تشكّل تتميماً للتعليم العقدي للتوحيد. وفي مقابل موضوع التوحيد، في هذا القسم، إنّ الشرك مرفوض ومستنكر. وفي القسم الأخير تحذيرٌ للمشركين من يوم الحساب[19].

سيد قطب[20]:

يناقش سيد قطب، بشكل متكرّر، في مقدّماته للسور المفردة، ما يدعوه بالمحور («الأطروحة المركزية»، والمعنى الحرفي للمحور هو «الفكرة الرئيسة»، «المرتكز») للسورة. والاختيار الدقيق لهذه الكلمة يعني، من وجهة نظر سيد قطب، أنّ كلّ سورة تدور حول فكرة رئيسة، وأنه يجب فهم السورة في ضوء هذه الفكرة[21]. إنّ سورة الفرقان، على سبيل المثال، حسب سيّد قطب، تواسي الرسول (إيناس لرسول الله) في صراعه ضد قريش، التي وجّهت اتهاماتٍ مؤلمة له. حيث قال، على سبيل الملاحظة، في القسم الأول من تفسيره لهذه السورة، بعد ذكر أمثلة عن هذا الإيناس: «هذه هي ظلال السورة، وذلك هو محورها الذي تدور عليه، وموضوعها الذي تعالجه، وهي وحدة متصلة يصعب فصل بعضها عن بعض»[22]. ومن ثمّ قام بتقسيم آيات السورة إلى أربعة أقسام (أشواط): 1-20، 21-44، 45-62، 63-77. يقدّم القرآن في هذه السورة، من خلال نقده لقريش، عزاء وسُلواناً للرسول. تمّ، في القسم الأول، إظهارُ عقائد قريش بأنّها هشّة لا تقبل الدفاع عنها، وذلك من أجل جعل انتقادات قريش للرسول، حين تُذكر في هذا القسم مباشرةً بعد ذلك، تفقد قوّة تأثيرها. ويصبُّ القسم الثاني، أيضاً، في مصلحة فكرة مواساة الرسول، وذلك من خلال روايته لانتقاد قريش لله –تعالى- لأنّه لم يرسل البراهين التي طالبتْ بها، ومن خلال ذكر العقاب الذي يدّخره الله لقريش؛ حيث إنّ القرشيين المفتخرين بذاتهم، في الحقيقة، يتحدون الله الذي يعرف كيف يتعامل معهم، والذي يعلم من يقف مع الرسول في صراعه ضدّ قريش. أمّا القسم الثالث، فهو يُظهر، بسبب وفرة الأدلة الناقدة لحججهم، والموجودة في الطبيعة، كم هي عبثية عقائد قريش الوثنية. ويتحدث المقطع الأخير، الذي يُقصد به، أيضاً، تسلية الرسول، من بين أشياء أخرى، أن الله –تعالى- لا يبالي بـــ (هوان البشرية عليه) التي تتحداه. وهنا

19 ثنوي، تفسير بيان القرآن، الجزء 4، ص 16 وما بعدها.

20 سيد قطب (1324_1386هـ/ 1906_1966م): زعيم مشهور من زعماء الإخوان المسلمين في مصر، نفذت فيه الحكومة المصرية حكم الإعدام بسبب اتهامه بالفتنة. يحمل تفسيره للقرآن اسم (في ظلال القرآن) (6مجلدات، بيروت، 1393-1394هـ/1973-1974م)، ويحظى هذا التفسير، الذي يحمل بعض الخصائص الأدبية الفريدة، بشعبية واسعة في العالم العربي والإسلامي.

21 لا يستعمل سيد قطب، في بعض الأحيان، كلمة «محور»، ويستعمل، بدلاً منها، أوصافاً أخرى تنقل الفكرة نفسها، على سبيل المثال (في سورة الشعراء): «موضوع هذه السورة الرئيسي هو...» (المجلد 5، ص 2583)

22 المرجع نفسه، 2546/5.

يعلّق سيد قطب بقوله: «وفي هذا الهوان تهوين لما يلقاه منهم رسول الله.. فهو يتّفق مع ظلّ السورة وجوِّها، ويتّفق مع موضوعها وأهدافها على طريقة التناسق الفني في القرآن»[23].

محمد عزة دروزة[24]:

يقول دروزة إنّه يوجد أناس يرون أنّ السور والآيات والمقاطع القرآنية قد وُضعت بجوار بعضها بطريقة تحكُميّة إلى حدّ ما. لكنّ دراسة دروزة الخاصة للقرآن أقنعته بعكس هذا الرأي، حيث ذهب إلى أنّ معظم الآيات والمقاطع في السور تكون مترابطة «بأن أكثرها مترابط ومنسجم». لذلك أعطى دروزة، أثناء كتابته تفسيره، عنايةً خاصة بشرح هذه الروابط «الاهتمام لبيان ما بين آيات وفصول السور من ترابط»[25]. فعلى سبيل المثال، هو يقسم سورة التكوير إلى قسمين: 1-14، و15-29؛ حيث قد يَظنُّ أحدُهم أنّ المقطع الثاني غير مترابط مع المقطع الأول، ولكنّ الأمر ليس على هذه الشاكلة: «والآية فصل مستقلّ الموضوع عن سابقاتها، غير أنّ الارتباطَ بينها وبين هذه [الآيات] السابقات قائمٌ»؛ لأنّ القسم الأول يخبر الناس عن قرب مجيء يوم القيامة، وينذرهم من الحساب الذي سيحدث في ذلك اليوم، في حين أنّ القسم الثاني يؤكّد صدق أخبار يوم القيامة، ويردّ على اعتراض الكفار على هذا الإنذار[26].

محمد حسين الطباطبائي[27]:

يحاول الطباطبائي، مثل سيد قطب، أنّ يبين الفكرة المركزية لأيّ سورة، داعياً إيّاها غرضاً (هدف، غاية، قصد). وهو يفعل ذلك من خلال النظر في بدء السورة، وخاتمتها، والمسار العام للنقاش (السياق الجاري). حدّد الطباطبائي، مستخدماً هذه المنهجية، غرضَ سورة العنكبوت على الشكل الآتي: الإيمان الذي يريده الله ليس هو الإيمان الذي يتفوّه به الإنسان بلسانه، لكنّ الإيمان الحقيقي هو الذي يبقى راسخاً في وجه المحنة والفتنة[28]. يتّخذ الطباطبائي تقسيم السور إلى أقسام قاعدةً له، لذلك، هو، أيضاً، يقسّم سورة العنكبوت إلى خمسة أقسام[29]. يقول القسم الأول (1-13) إنّ المؤمنين سوف لن يكونوا بمنأى عن الاختبارات والفتن في هذا العالم؛ لأنّ وضع الناس موضع الاختبار هو سنّة («قانون، ممارسة») إلهية. يجسّد القسم الثاني

---

23 المرجع نفسه، 2547/5.

24 دروزة، محمد عزة، التفسير الحديث (12 جزءاً، مصر، 1381-1383هـ/1962-1964م). السور في هذا الكتاب مفسّرة حسب ترتيب نزولها.

25 المرجع نفسه، 7/1.

26 المرجع نفسه، 129.

27 الطباطبائي، محمد حسين (1321-1402هـ/1903-1981م)، عالم إيرانيّ بارز، أصدر تفسيراً للقرآن في عدة مجلدات، يحمل اسم: الميزان في تفسير القرآن، في 20 جزءاً، بيروت، 1393-1394هـ/1973-1974م، يحتوي الجزء 21، الذي نُشر في عام 1985م على دليل فهارس مفصلة لمواضيع التفسير.

28 الطباطبائي، الجزء 16، ص 98.

29 المرجع نفسه، 98/16-152.

(14-40) السنّة الإلهية، التي جرت مع سبع أنبياء سابقين وأممهم. والقسم الثالث (41-55) تتمّة للقسم السابق؛ حيث يشير إلى الأساس الواهي لعقائد الأمم المدمَّرة. وقامت السورة، قبل الوصول إلى هذه النقطة، بانتقاد أولئك المؤمنين الذين ارتدّوا عن دينهم خوفاً من الفتنة. يخاطب القسم الآتي (56-60) بقيّة المؤمنين الذين تعرّضوا للاضطهاد في مكة على يد قريش، ويطلب منهم الثبات، وإذا اقتضت الحاجة يوجّههم نحو الهجرة من مكة. أمّا القسم الأخير (61-69)، فهو يخاطب النبي (ومن خلاله كل الأمة الإسلامية)، مستأنفاً الحديث عن الأطروحة التي أُثيرت في القسم الأول.

حميد الدين الفراهي وأمين أحسن إصلاحي[30]:

حسب الفراهي، كلّ سورة لها موضوع مركزيّ، يدعوه (عمود السورة). وكلّ الآيات، في أيّ سورة، مرتبطة بشكل متكامل مع عمودها، ولا تكشف هذه الآيات عن كامل معناها إلا عندما نكتشف عمودها، ونتعرّف مركزيّته بالنسبة إلى السورة. فعلى سبيل المثال، إنّ عمود سورة الذاريات هو الجزاء الإلهي، مع تأكيد الجوانب العقابية للجزاء. كلّ الأقسام السبعة، التي قسّم إليها الفراهي سورة الذاريات (1-14، 15-19، 20-23، 24-37، 38-46، 47-51، 52-60)، تتعامل مع ذلك الموضوع، فالقسم الأول يصرّح به، والأقسام الأخرى تقدّم الأدلة على هذا الموضوع[31].

حاول إصلاحي، انطلاقاً من الفكرة القاعدية «العمود»، كما وضعها أستاذه الفراهي، أن يبيّن عمود كلّ سورة من سور القرآن كاملاً، وأن يؤوّل كلّ سورة من خلال الإشارة إلى العمود الخاص بها.

يمكن النظر إلى محاولة إصلاحي هذه على أنّها المحاولة الأكثر طموحاً، التي قام بها أيُّ كاتب حديث لترسيخ فكرة أنّ السور القرآنية وحدات نصية متكاملة. ونظراً لأنّه سبق لي أن تعاملتُ مع مفهوم إصلاحيّ عن وحدة السورة في كتاب مستقل، قدّمت، من خلاله، معالجته لسورة النساء[32]. فسأقتصر، في بحثي هذا، على عرض موجز لجزء من تحليله لسورة البقرة، السورة الثانية في القرآن[33].

---

30 أسهم حميد الدين الفراهي (1280-1349هـ/1863-1930م)، وهو غير معروف بما فيه الكفاية خارج الهند وباكستان، إسهاما قيماً في ميدان تفسير القرآن؛ حيث عرض ودافع، في عدد من كتبه، عن وجهة نظره بأنّ القرآن يشكل وحدة عضوية. شرع الفراهي، انطلاقاً من الإطار النظري الذي طوّره لتأويل القرآن، بكتابة تفسير كامل للقرآن، ولكنّه لم يكمل إلا تفسير عدد قليل من السور قبل وفاته. وقد كتب تفسيره للسور الأربع عشرة (مع استثناء واحد) باللغة العربية، وقد نُشر في أجزاء منفصلة، وقد قام تلميذه أمين أحسن إصلاحي بنشر ترجمة كاملة لهذا التفسير باللغة الأوردية باسم «مجموعة تفاسير الفراهي» (لاهور، عام 1973م). وقد أصدر إصلاحي (ولد عام 1324هـ/1906م)، متبعاً المبادئ والمنهجية، التي وضعها أستاذه، تفسيراً كاملاً للقرآن، اسمه «تدبر القرآن» (8 أجزاء، لاهور، 1967-1980م). للوقوف على معالم حياة الفراهي وإصلاحي، والوقوف على معالجة أكثر تفصيلاً لوجهات نظرهم، انظر كتابي (الانسجام النصي)(Coherence in the Quran)

31 لمزيد من التفاصيل، انظر: مير، الانسجام النصي، ص 39-41.

32 المرجع نفسه، ص 46-49.

33 الوصف التالي مستخلص بطريقة موجزة من شروحات إصلاحي (المأخوذة بدورها من تفسيره لمواضع مختلفة في هذه السورة) للروابط بين المقاطع النصية التي قسّم السورة بموجبها. للوقوف على تلخيص إصلاحي للسورة، انظر، تفسيره «تدبر القرآن»، 1/32-36.

حسب إصلاحي، إن هذه السورة تنقسم إلى مقدّمة، وأربعة أقسام رئيسة، وخاتمة:

المقدمة (1-39)

الخطاب المتعلق ببني إسرائيل (40-121).

التراث الإبراهيمي (122- 162).

الشريعة أو القانون (163-242).

تحرير الكعبة (243-283).

الخاتمة (284-286).

سوف نركّز على القسم الثالث من الأقسام الأربعة الرئيسة (أي من الآية 163 إلى الآية 242)، وهو القسم الأكثر صعوبة من حيث شرح تماسكه النصي الداخلي واستمراريّته مع ما سبقه. بعد المقدمة (1-39)، يتألف القسم الأول (40-121) من نقدٍ ليهود الجزيرة العربية. وقد ترسّخ في هذا القسم وضع المسلمين بوصفهم جماعةً مقابل الجماعة اليهودية. ونجد في القسم الثاني (122-162)، دعوى تقول إنّ الجماعة المسلمة تمثّل استمراراً في الخط الروحي الإبراهيمي. وعلى هذا، فإنّ المسلمين لهم حقّ المطالبة بالرمز الأكثر بروزاً في التراث الإبراهيمي (الكعبة). ولذلك، فقد أُعلنت الكعبةُ بوصفها قبلةً لهم، مع إشارة واضحة إلى أنّه يجب على المسلمين أن يُعدّوا أنفسَهم لتحريرها من أيدي الذي لا يستحقون أن يكونوا القيّمين عليها؛ أي من قريش. لكن الجماعة الجديدة تحتاج أولاً إلى مجموعة من القوانين أو إلى شريعة، وهذا يأخذنا إلى القسم الثالث.

يبدأ هذا القسم على نحو ملائم بعبارة تصرّح بالمبدأ التأسيسي للشريعة الجديدة (التوحيد) (163-164). وبعد ذلك، تمّ وضع هذا التوحيد في مقابل الوثنية المنتقَدَة في الآيات (165-167). وكلما يُذكر في القرآن موضوعُ الوثنية فإنّه يقود إلى الحديث عن المباح، وغير المباح من الطعام (168-176)[34].

بعد تأكيد أنّ هذا الطريق [طريق الالتزام بالشريعة] يجب أن يكون مُفعماً بالتقوى (177)، تمّ النصُّ على تشريعات عملية ضرورية في حفظ السلم والعدل في المجتمع، ابتداءً بالتشريعات المتعلقة بحرمة النفس (احترام النفس البشرية 178-179)، وحُرمة المال (احترام ملكية الآخرين 180-182. وكذلك الأحكام

34 وذلك لأنّ عبادة الأصنام تتضمّن تقديم القرابين لهم، وهذه القرابين عبارة عن طعام غير شرعي.كما في سورة البقرة (168-173)، التي تقول إنّ الشيطان يوحي للناس أن يقدّموا هذه القرابين، وإن الناس الذين يقدّمون مثل هذه القرابين لا يجدون سنداً في عملهم هذا أفضل من الاستناد إلى عادات آبائهم الأولين. وفي السياق نفسه، انتُقد أهل الكتاب (175-176).

الأولى المتعلقة بالتوزيع العادل للممتلكات الموروثة). ويتضمّن احترام الحياة وملكيّة الآخرين ممارسة الضبط الذاتي للنفس، وهنا يُفرض الصيام بوصفه وسيلةً لغرس هذا الانضباط (183-187). والصيام، فضلاً عن اجتثاثه للطمع، فإنّه يحفظ الإنسان من الاستيلاء على ملكيّة الآخرين باستخدام وسائل مثل الرشوة (188). وموضوع الصيام يقود إلى إثارة موضوعي الحج والجهاد. والاتصال بين هذه الموضوعات الثلاثة واضحٌ جليٌّ؛ إذ كلّها وسائل لضبط النفس، ولكنّ للحج والجهاد في هذا المقام اتصالاً من نوع آخر.

كما سبق ذكره أعلاه، فإنّه كان من الواجب انتزاع الكعبة من سلطة قريش، وبعبارة أخرى، إعلان الجهاد. ولكنّ الجهاد في سبيل الكعبة يطرح عدّة أسئلة، من قبيل، ماذا لو أنّ الجهاد شُنّ في الأشهر الحُرُم؟[35] (189-194). ومن ثَمَّ توجد مسألة الإنفاق في سبيل الله، وذلك لأنّ الجهاد يجب أن يُموَّل (195). وتشرح الآيات (196-200) الروحَ الحقيقية، والطريقة الصحيحة، التي يجب أن يؤدّى وفقها الحج والعمرة. وتتحدّث الآية (200)، أيضاً، عن الناس الذين يمكن لهم أن يستغلّوا حتى مناسبة الحج للحصول على غايات دنيوية محضة. وتقيم الآيات (204-214) تقابلاً بين صفات هؤلاء الناس (المنافقين) وبين صفات المؤمنين الحقيقيين. لكن في الحقيقة، فإنّ هذا المقطع مقطع اعتراضي، لذلك فإنّ النقاش يعود إلى تناول موضوعات الجهاد والإنفاق ابتداء من الآية (215). وإذا أردنا أن نوجز في وصف بقية هذا القسم، فإنّنا نقول: إنّ الحرب تجلب معها الكثير من المشكلات، من بينها مشكلة اليتامى والأرامل، ومن بين طرق حلّ هذه المشكلة طريقةُ السماح للرجال بأن يتزوّجوا الأرامل هؤلاء. هذا الأمر يعبّد الطريق أمام معالجة قضايا عامة تتعلق بالزواج والطلاق. وهو يستمرّ حتى الآية (237). وتختم الآيات (238-242) هذا الفصل، بتقديم بعض المواد المتمّمة. ربما يكون الجزء الصعب الوحيد، فيما بقي من السورة من حيث الاستمرارية، هو قصّة معركة بني إسرائيل ضد الفِلستيين (243-251). إنّ بني إسرائيل، حسب إصلاحي، قد خاضوا هذه المعركة من أجل أن يستعيدوا «قِبلتهم»، وتابوتهم، وفي الحقيقة إنّ صراعهم هذا يمثِّل، ويتنبّأ، بشكل مسبق، بصراع المسلمين لتحرير قبلتهم (الكعبة).

تفسير القرآن في القرن العشرين: نظرة تحليلية

1. إذا كان الكثير من مفسِّري القرآن، الذي ينتمون إلى أجزاء مختلفة في العالم الإسلامي، يرون أنّ سور القرآن هي وَحدَات نصية، ومن ثَمَّ قاموا بتطبيق هذا الفهم على القرآن، فإنّه من المعقول، في هذه الحالة، أن نستنتج أنّ هذه النظرة إلى السور قد تجذّرت في تربة تفسير القرآن في القرن العشرين. ومن الملاحظ أنّنا نكاد لا نجد أيَّ دليل يشير إلى أنّ بعض المفسرين، الذين أخذوا بهذه النظرة، قد تأثروا ببعضهم الآخر؛ بل، على العكس من ذلك، إنّنا متأكدون تقريباً من أنّ كلَّ مفسِّر من هؤلاء المفسرين قد وصل إلى

35 يفسّر إصلاحي كلمة «أهلة» الواردة في الآية رقم 189 بـــ «أشهر»؛ أي «الأشهر الحرُم» ولا يفسرها بأنها «أطوار القمر». انظر: إصلاحي، 1/427-428.

الأخذ بهذه النظرة بشكل مستقلّ عن الآخرين. ومع ذلك، لا يوجد أيّ لغز يعتري هذه النقطة، وذلك لأنّ العالمَ الإسلامي -كما سأبيّنُ ذلك فيما بعد- قد اشترك، بشكل عام، في التعرّض لبعض الضغوطات الفكرية التي أنتجتها الحداثة، وقد أثارت هذه الضغوطات ردودَ فعل متشابهة في مختلف بقاعه الأربعة.

لم يكتفِ كتّابنا الأربعة بتأييد فكرة أنّ السورة تشكّل وحدة نصية فحسب، بل يبدو أنّهم يشتركون، أيضاً، في الخطوط العامة في مقاربة هذا الموضوع. فعلى سبيل المثال، استخدم جميع هؤلاء المفسرين المقاربة التحليلية-التركيبية؛ حيث يقوم المفسِّر بتقسيم السورة، أولاً، إلى عدة أقسام، ومن ثمّ يقوم بإنشاء روابط بين هذه الأقسام. ويمكن أن يختلف تقسيم كلّ مفسِّر لسورة عن التقسيم الذي يذهب إليه مفسر آخر، لكنّ الافتراض الضمنيّ يبقى، دائماً، أنّ الأقسام يمكن أن تُحبك في خطاب واحد متصل. وعلى الرغم من ذلك، يوجد، أيضاً، بعض الاختلافات في المقاربة؛ حيث يمكن، على سبيل المثال، لنظرة فاحصة على تفاسير هؤلاء المفسرين، أن تُظهر لنا أنّ المقاربة، التي يأخذ بها بعض هؤلاء الكتّاب، هي أكثر عضوية وكليّة (organic, holistic)، (ولذلك فهي أكثر انسجاما وتماسكا) من المقاربات التي يستخدمها الكتّاب الآخرون. ولو كان على المرء أن يرتّب هؤلاء الكتّاب وفق هذا المعيار، لوضعنا الفراهي وإصلاحي في المقدمة، ووضعنا في المقام الثاني بعدهما سيد قطب، وحسين الطباطبائي، وأشرف ثنوي، وعزة دروزة.

إذا كانت الفكرة القائلة إنّ السورة تشكّل وحدة نصيّة قد ضربت جذروها، واكتسبت، أيضاً، المزيد من الأنصار على ما يبدو، فهذا يعني أنّه يوجد بين المفسرين في العصر الحديث المزيدُ من عدم الرضا المستتر عن المقاربة التراثية التقليدية لهذا الموضوع. ومن الطريف أنّ عدم الرضا هذا لا يعبِّر عن نفسه إلا بصعوبة، ولا يصل الأمر به على الإطلاق إلى أن يتّخذ شكل النقد العميق. والانطباع السائد، هنا، أنّ بعض الناس يظنون أنّ القرآن كتاب غير مترابط، ولكنّ العبارة الأكثر دقّة، كما سبق أن رأينا، يجب أن تكون: إنّ بعض الناس يرون أنّ القرآن كتابٌ مترابط الأجزاء. وقد يكون السبب المسؤول عن موقف كهذا احترام الناس للتراث التفسيري القديم الذي دام عدة قرون، أو الخوف من اعتراض سبيل هذا التراث في وقت غير ملائم.

2. إنّ النظر إلى السورة بوصفها وَحدَة نصيّة أمرٌ أصيل بالنسبة إلى عالم الثقافة الإسلامية. ليس لأنّه لا يوجد أيّ دليل على وجود أيّ تأثير للدراسات القرآنية الغربية على كتّابنا الستة، الذين يحول تكوينهم الثقافي التقليدي دون الخضوع لإمكانيّة هذا التأثير، ولا يوجد أيُّ شيء في هذه الدراسات يُفسِّر لنا ولادة هذه الظاهرة، أي النظر إلى السورة بوصفها وحدة نصية. لقد انتقد بيل-وواط (Bell-watt) نولدكه (Noldeke)؛ لأنّه نظر إلى السور على أنّها وَحدات[36]. لكنّ هذا الأمر مختلف تماماً؛ وذلك لأنّ نولدكه لم

36 مدخل بيل إلى القرآن، طبعة محققة وموسعة بقلم وليم مونتغمري واط.

Bell's Introduction to the Qur'an, revised and enlarged by W. Montgomery Watt (Edinburgh 1970), p 111.

يفهم أنّ السور وحدات وفق المعنى نفسه الذي فهمه العلماء المسلمون، هذا فضلاً عن أنّ انتقاد بيل-وواط لا يعتمد على فهم المسلمين لهذه المسألة.

ولكن على الرغم من ذلك، يبدو لنا أنّه توجد حالة يمكن أن تشير إلى تأثير غير مباشر للغرب، وذلك أنّ بعض المسلمين، على الأقل، أخذوا في الاعتبار الانتقادَ الغربي للقرآن، أثناء محاولتهم تفنيد المفهوم القائل إنّ القرآن نصٌّ مفكّك يفتقد الوحدة والتماسك، وهذا الانتقاد يمكن أن يكون قد وصَلَهم عن طريق مصادر ثانويّة، مثل الإرساليات المسيحية في العالم الإسلامي. ويمكن أن نضيف إلى هذه الانتقادات الشكوكَ والتحفظاتِ، التي صرّح بها الذين يُدعون بالمتغرِّبين المسلمين حول بنية القرآن. ولكن ربّما يكون العامل الأكثر أهمية وفاعلية وتأثيراً وجود إدراكٍ متزايد بين المسلمين في القرن العشرين بأنَّ مهمة إعادة تأويل الإسلام يجب أن تبدأ بإعادة تأويل القرآن. وكان يُنظر إلى القرآن، دائماً، على أنّ له الصدارة العليا في الإسلام. لكن عندما ندرس الكتابات العديدة التي تؤكّد صدارة القرآن، فإنّنا نلاحظ بوضوح أنّ الرسالة، التي تحملها هذه الكتابات، هي وجوب إخضاع استخدام المصادر فوق القرآنية، التي تمارس دوراً أساسياً جداً في تحديد شروط تفسير القرآن؛ للفحص النقدي الدقيق. وبكلمة أخرى، يجب أن يصبح النصُّ القرآني صاحبَ الكلمة الفصل في تحديد المعنى في القرآن. ولكن إذا أُزيلت صرامة المحدِّدات التأويلية للمصادر فوق القرآنية، أو تمّ تخفيفُها، فإنّه يجب، عندئذ، تقديم محدِّدات تأويلية أخرى، تكون مستمدّة من القرآن نفسه. وهذا يمكن أن يؤدي، من الناحية المنطقية، إلى تعليق أهمية حاسمة على السياق القرآني. ولكنّ السياق في القرآن لا يمكن أن يمتلك هذه الأهمية في الرؤية التي تذهب إلى أنّ القرآن ذو طابع تجزيئيّ، وأنّ مقاربة القرآن، آيةً إثر آيةٍ، هي المقاربة الأمثل. وفي المقابل، يمكن أن يكون للسياق أهميةٌ فحسب في حال إذا ما نظرنا إلى القرآن بوصفه كتاباً يمتلك درجة معتبرة من التماسك والاستمرارية. وهكذا، فإنّه يمكن أن يُقال إنّ الحداثة قد خلقت شروطاً أصبح النظر في ضوئها إلى القرآن، بوصفه وَحدَة، وجهةَ نظر ممكنة؛ بل أصبحت أمراً ضرورياً يجب الأخذ به.

3. السؤال الأكثر أهمية: ما الفرق الذي تُحدثه هذه النظرة؟ ماذا يعني أن نقول إنّ السور القرآنية عبارة عن وحدات نصيّة؟ هل تكتفي هذه النظرة بمجرد أن تجعل القرآن، من الناحية الجمالية، أكثر إمتاعاً، وذلك لأنّ سِمتي التماسك والاستمرارية اللتين لم تكونا، بشكل عام، مرتبطتين به من قبلُ، أصبحتا، الآن، ظاهرتين فيه، أو هل تمتلك هذه النظرة أهمية هرمينوطيقية واضحة بالإضافة إلى ذلك؟ لا نستطيع تقديم إجابة كاملة عن هذا السؤال في هذه المرحلة من البحث.

بالنسبة إلى كاتبٍ مثل أشرف علي ثنوي، الذي يعتمد، بكلّ حرص ودقة، على كلّ المخزون التراثي، ويقوم بعرضه بشكل منتظم، أثناء قيامه بعملية التفسير، فإنّه توجد فرصة ضئيلة متاحة أمام هذه النظرة حتى

تتطوّر وتصبح أصلاً تفسيرياً له قيمة هرمينوطيقية. لكن مع كتّاب آخرين، مثل الفراهي، وإصلاحي، وسيد قطب، أصحاب النظرة «الجذرية»، إلى حدٍّ ما في هذا الصدد، يبدو أنّ هذه النظرة تتطوّر بالفعل للوصول إلى أن تكون أصلاً ومبدأ في عملية التفسير. فعلى سبيل المثال، إنّ هؤلاء الكتّاب الثلاثة، يرفضون، غالباً، الأخذ بأسباب النزول لصالح الأخذ بالتأويل القرآني المعتمد على السياق. لنأخذ مثالاً محدداً. إنّ إصلاحي يرفض بقوّة الأخذ بالفكرة السائدة التي تقول إنّ الآيات الأولى (1-5) من سورة العلق كانت أوّل آيات القرآن نزولاً؛ حيث يرى أنّ هذه السورة تشكّل وحدة نصيّة متصلة؛ أي أنّ آيات السورة التسع عشرة لا بدّ من أن تكون موحَاة في وقت واحد. لكننا -حسب إصلاحي- إذا ألقينا نظرة عجلى على ما يشير إليه مضمون الآيات (من 6 إلى 19) فإنّنا نلاحظ أنّ هذه الآيات لا يمكن أن تكون أول آيات القرآن نزولاً[37].

إذاً، إنّ الاختبار الحقيقي لفَرَضية أنّ السورةَ وَحدةٌ نصية، يكون فيما إذا كانت هذه الفرضية ترتقي إلى أن تشكّل منهجاً جديداً في دراسة القرآن. هل هذه الفرضية قادرة، من جهةٍ، على توليد تقنيات يمكن أن تساعد على إنشاء صلات معقولة بين آيات القرآن ومقاطعه، ومن جهةٍ أخرى، هل هي قادرة على توليد معنى لا يمكن الوصول إليه عن طريق استخدام أيّ مبدأ تأويلي آخر[38]؟ هنا، يمكن أن نلاحظ أنّ كتّابنا الحديثين الستة، الذين يمكن النظر إليهم بوصفهم مجموعة واحدة، في مقاربتهم للقرآن، ينظرون، على الرغم من اختلافهم، إلى السورة بطريقة تختلف كثيراً عن الطريقة التي يتعامل بها الكتّاب الآخرون معها، مثل الرازي. وبشكل عام، يمكنني القول، مكِرراً التعابير التي استخدمتُها من قبل، إنّ مقاربة الكتّاب التراثيين (القسم الأول) مقاربة خطية-تجزيئية (linear-atomistic)، بينما مقاربة الكتّاب الحديثين (القسم الثاني) مقاربة عضوية-كليّة (organic-holistic). وهذه المقاربة الجديدة تشكّل، بالتأكيد، إشارةً واعدة. ولا يمكن، في هذه المرحلة من البحث، أن يكون إيراد بعض الملاحظات ذات الطابع التأملي خارجاً عن السياق.

4. لاحظ غولدزيهر (Goldziher)، أثناء متابعته التفاسير الأولى للقرآن، أنّنا لا نستطيع الحديث عن معيار أو شكل تراثي موحَّد لتفسير القرآن؛ لأنه لا وجود لأمر مثل هذا، وهذه التفاسير ليست مختلفة فحسب؛ بل تحتوي على تأويلات متناقضة لمقاطع قرآنية واحدة[39]. هذا الأمر ينطبق، أيضاً، على تفاسير القرآن التي أتت فيما بعد، والتي تُعدُّ، بنسبة كبيرة منها، إعادة إنتاج للتفاسير المتقدمة. يبدو لنا الآن أنّ السبب الرئيس المسؤول عن هذه التأويلات المتباينة والمتنافرة يمكن أن يكون المقاربة التجزيئية التي يستخدمها المفسرون.

---

37 من الصحيح، أيضاً، حسب بعض الروايات، أنّ سورة العلق لم تكن أوّل سورة أُوحيت، لكنّ القضية، التي تُميّز إصلاحي هنا، أنّه قد وصل إلى هذه النتيجة دون الاستناد إلى هذه الروايات؛ بل من خلال تطبيقه مبدأ «النظم».

38 تقدّم كتابات الفراهي وإصلاحي بعض الأفكار الجيدة والعميقة في هذا الصدد، وتلفت النظر إلى بعض الاحتمالات المثيرة. سوف أناقش هذا الأمر بالتفصيل في دراسة أخرى أقوم الآن بالإعداد لها.

39 غولدزيهر، مذاهب التفسير الإسلامي للقرآن، ص 83.

Ignaz Goldzihr, Die Richtungen der islamischen Koranauslegung, Leiden 1970, reprint (first published 1920),p83.

وذلك بسبب أنّهم يفسرون، في العادة، آيةً واحدة في وقت واحد، ولا يعدّون النظر إلى الآيات السابقة واللاحقة أمراً حاسماً على طريق الوصول إلى تأويل مناسب من الناحية السياقيّة، وقابل للتسويغ. ويشير غولدزيهر، أيضاً، إلى أنّ العلماء المسلمين ينظرون إلى القدرة على تقديم كلّ أنواع التأويلات المختلفة لآية قرآنية واحدة على أنّه دليلٌ على ثراء القرآن[40]. لكنّ الحقيقة أنّ تطبيق المبدأ التجزيئي لا يحوّل القرآن إلى قالب حلوى غنيّ بالطبقات؛ بل إلى مادة معجونيّة فاقدة للشكل. يمكن أن يساعد النظرُ إلى السورة بوصفها وحدة، لو تمّ تطويره بشكل سليم، على وضع نهاية للتأويلات الشاذة والبعيدة عن الصواب. وفي المقابل، إنها تقدّم تأويلات للقرآن أكثر أصالة وأكثر إثماراً. وهذا الأمر يمكن أن يحدث في مجالين، وإن كان بطرق مختلفة، هما الفقه والأدب.

إذا أخذنا بالنظرة القائلة إنّ السورة وحدة نصيّة، أثناء عملية التفسير، فإنّه يترتب، من الناحية المنطقية، على هذا الأخذ إعطاءُ السياق أهميّة حاسمة في الاستنباطات الفقهية. فعلى سبيل المثال، إن العالمين المصريين محمود شلتوت ومحمد أبو زهرة، اللذين لا يمكن أن يُتهما بمواجهة الحداثة بروح اعتذاريّة مفرطة، قد قاما بدراسة سياقيّة للآيات القرآنية المتعلقة بالحرب والسِّلم، ووصل كلٌّ منهما، بشكل مستقل، إلى أن السِّلم، في ضوء المنظور القرآني، هو المنطلق الأساسي في القانون الدولي، وليس الحرب، وأنّ القرآن يسمح بالقتال من أجل ردّ العدوان، أو وضع نهاية للاضطهاد فحسب[41].

لا يمكن أن تُدرس بعض السمات الأدبية للقرآن، مثل العنصر الدرامي، بطريقة مثمرة إلا إذا انطلقنا من افتراض أنّ التركيب القرآني بأكمله أمرٌ مستقر وراسخ. فعلى سبيل المثال، إنّ توشيهيكو إيزوتسو (Toshihiko Izutsu) يلاحظ أنّ القرآن يتصف «بالكثافة الدرامية الروحية»[42]. وفي الحقيقة، لا يمكن لنا أن ننتج دراسات تُظهر أنّ القرآن متّصفٌ بكثافة درامية بالمعنى الأدبي إلا إذا انطلقنا من الافتراض السابق [أي أنّ التركيب القرآني تركيب مستقر وراسخ] أيضاً. وهكذا، فإنه يمكن لنا فتح الأبواب أمام طرائق جديدة لدراسة القرآن بوصفه نصاً أدبياً[43].

---

40 المرجع نفسه، ص 84-85.

41 انظر: مستنصر مير، الجهاد في الإسلام.

See Mustansir Mir, «Jihad in Islam» forthcoming, Andrew Ehrenkreutz Festschrift, Center for Middle Eastern and North African Studies, University of Michigan, Ann Arbor.

42 توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن.

Toshihico Izutsu, God and man in the Koran, New york 1980, reprint (first published 1964), p 74.

[تُرجم هذا الكتاب المهم إلى اللغة العربية تحت عنوان: «الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم»، ترجمة وتقديم الدكتور هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007م]. المترجم.

43 انطلق أحمد مختار البزرة، في كتابه: في إعجاز القرآن، دراسة تحليلية لسورة الأنفال، المحتوى والبناء، (دمشق وبيروت، 1408هـ/ 1988م)، من مبدأ السورة بوصفها وحدة (على سبيل المثال [ص 532]: فالسورة وحدة عضوية ذات بنية حيّة عناصرها متضامّة في تلاؤم وتوافق وانسجام، تتكامل آية آية على متن خيط متصل من السببية الوثيقة)، وقام بتحليل السمات الأدبية لسورة الأنفال.

ملاحظات ختامية:

أرجو أن أكون قد نجحتُ في إظهار أنّ عددا مهماً من العلماء المسلمين، في العصر الحديث، ينظر إلى السور القرآنية على أنّها وحدات نصية. لم أحاول أن أقدّم، هنا، دراسة مفصّلة عن مناهج هؤلاء العلماء، وليس ذلك بسبب أنّ هذا الأمر ليس ممكناً في هذه الورقة العلمية فحسب، بل، أيضاً، بسبب أنّ المهمة، التي وضعتها نُصب عيني هنا، وهي تسليط الضوء على ظاهرة جديدة في ميدان تفسير المسلمين للقرآن، لا تتطلَّب هذا الأمر. ومع ذلك، فإنّ إنجاز دراسة كهذه قد يكون الخطوة القادمة.

في الوقت الذي يبدو فيه أنّ النظرة، التي ترى أنّ السور القرآنية وحدات نصية، قد رسّخت نفسها، وأنّه قد يكون من الصعب إزالتها، لا تتمتع هذه النظرة بوضوحٍ كليّ فيما يتعلق بالطريقة أو بالطرق التي يمكن أن تتطور من خلالها. إنّ معظم الذين أخذوا بهذه النظرة هم من العلماء التقليديين، الذين من المحتمل أن يكونوا غير مستعدين للمضيّ قُدُماً وراء الإمكانات المقترحة من قِبَل هذه النظرة.

إنّ المستقبل هو الذي سيحدّد هل هذه النظرة سوف تكون مجرّد تيار تحتيّ أو ستصبح مدّاً بحرياً هادراً؟ وهل ستكون اتجاهاً تفسيرياً جانبياً أو سوف تصبح اتجاهاً تفسيرياً رئيساً يمتلك مكانة راسخة؟

قد يكون من المثير أن نشهد ماذا سيحدث لهذا التطور الجديد في الفكر التفسيري الإسلامي داخل الأوساط الأكاديمية الغربية. وذلك لأنّ الباحثين الغربيين لا يمكن لهم أن يتجاهلوا هذا التطور من جهة، ولأنّ الباحثين المسلمين، في محاولاتهم لضمان الكمال لهذا التطور، لا يمكنهم، من جهة أخرى، أن يتجاهلوا النظريات الغربية في التركيب النصي للقرآن.

إذا تمكّنت هذه الورقة العلمية من تسليط الضوء على حاجة الباحثين المسلمين والغربيين إلى مناقشة هذا التطور الحديث[44]، فإنّها تكون قد بلغت الغاية التي سعت إليها[45].

44 [من الدراسات الحديثة، التي قام بها باحثون مسلمون وغربيون، فيما يتعلق بقضية بنية النص القرآني ووحدته وانسجامه وتماسكه الموضوعي والنصي، نذكر البحوث والكتب الآتية:

- Andrew Rippin, Contemporary scholarly understandings of Quranic coherence, Al-Bayan Journal, published by Academy of Islamic Studies, University of Malaya, Kuala Lumpur-Malaysia, 2013.

- Mustansir Mir, Continuity, Context, and coherence in the Quran: A brief review of the idea of Nazm in tafsir literature. Al-Bayan journal, published by Academy of Islamic Studies, University of Malaya, Kuala Lumpur-Malaysia, 2013.

- Salwa El-Awa, Textual relations in the Quran: relevance, coherence, and structure, London, New York, Routledge, 2006.

- Nevin Reda, Holistic approaches to the Quran: a historical background, Religion Compass 4, 2010.

- Neal Robinson, Discovering the Quran: A contemporary approach to a veild text, second edition, Scm Press, London, 2003.

- أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، منشورات دار كلية الآداب في الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992م.

- محمد عناية الله أسد سبحاني، إمعان النظر في نظام الآي والسور، دار عمار، عمّان، (د.ت).

- محمد عناية الله أسد سبحاني، البرهان في نظام القرآن، دار الكتب، مكتبة الجامعة، إسلام أباد، 1994م.

- إبراهيم رحماني، النظم القرآني وأثره في أحكام التشريع، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2010م] المترجم.

45 أودّ أن أشكر الأستاذة الدكتورة وداد القاضي لتعليقاتها القيّمة على ورقة البحث هذه.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017